(٨٩)

"القائد الصريع"

"أنا أعرف المكان جيدًا ... فتعالين ورائى جميعًا" ...

كانت تلك هى كلماتها لكل السيدات اللاتى تأهبن للذهاب إلى المقابر لحضور دفن إنسانة جميلة عاشت بينهن برقةٍ وعذوبة، فلم تبادر بالإساءة لأحد، ولم تبدأ بمعاداة أحد، ولم تتأخر عن الوقوف بجانب أحد أو مساعدته قدر استطاعتها. ومثلما قدمت المتوفاة الكلمة الطيبة والمشاعر النبيلة لكل من حولها طوال حياتها، اجتمع كل من عرفها فى يوم جنازتها مودعين لها ومتألمين لفراقها.

وتقدمت تلك السيدة المتبرعة بالقيادة جموع النساء؛ لكونها الدليل لهن على المكان الصحيح للمقبرة التى ستتم بها عملية الدفن. وبخطواتٍ واثقة ونفسٍ متأهبة ذهبت تلك السيدة لتتقدم الجميع إلى مكان الدفن، وكأنها قائد مغوار فى مقدمة معركة شديدة البأس لا يفتقد فيها أى قدْر من الشجاعة والإقدام، ولا يعوق إرادته الوثابة خلالها أى حِمْل يدفع إلى التخاذلٍ أو الإحجام. وما أن وصلت إلى الهدف الذى قادت الجموع إليه، فإذا بها تكون أول من انهار من فرط البكاء، فكانت هى الوحيدة التى فاجأت الجميع بسقوطها على الأرض من شدة الصراخ، الذى علا مخترقًا كل الآفاق الساكنة، ومدويًا فى السماء بعدما ملأ المكان بلا استئذان أو سابق إنذار.

وانقلب الحال فى الحال، فبعدما كان القائد هو محل السكينة لمن حوله، لم يجد الجميع بُدًا من الالتفاف حول ذلك القائد الذى سقط فجأةً على الأرض، بعد مسيرة ليست بالقصيرة من القيادة بشجاعة. وبدلاً من أن ينعى الجميع السيدة التى جاءوا لحضور دفنها، إذا بهم ينعون سيدة أخرى هى والدة السيدة التى قادتهم، والتى ماتت منذ أكثر من عشر سنوات، وكانت رؤية ابنتها لقبرها هى المحرك لشجونها وأحزانها الماضية. ونسى بذلك كل الواقفين السيدة التى جاءوا لحضور جنازتها، خوفًا منهم على القائدة الشجاعة التى سقطت بينهم صريعة لحزنها على والدتها، عندما تذكرت مصيبتها القديمة فى وفاتها.

وما أن تم فتح الجبانة، حتى التف الجميع حولها مرة أخرى مانعين إياها من اندفاعها للدخول الذى كانت تهدف منه الارتماء من جديد بين أحضان أمها التى فارقتها تاركةً إياها وحيدة وشريدة رغم مضى كل تلك السنوات.